

إفتحوا النوافذ ليدخل نور الشمس !

(رد على مقال نشرته جريدة " المسلمون " السعودية في عددها الصادر يوم الجمعة 13 أيلول 1996 لكاتبه عمر الأنصاري .)

نشرت جريدة " المسلمون " السعودية في عددها الصادر يوم الجمعة 13 أيلول 1996 مقالاً لكاتبه عمر الأنصاري ، تحت عنوان : " شريعة الإسلام متوسطة بين شريعتي التوراة والإنجيل " . والمقال هو إعادة سرد لمحاضرة ألقاها الشيخ عبد الله البسام ، عضو هيئة كبار علماء السعودية ، في مدينة مكة تحت عنوان : " مقارنة بين الأديان الثلاثة تظهر فضل شريعة الإسلام " .

في مطلع المقال وبين فقراته ، أبرزت الصحيفة مقتطفات من محاضرة الشيخ جاء فيها : " ان تعاليم الكتابين المقدسين التوراة والإنجيل امتد إليها التحريف وعثت فيهما أيدي الأهواء والأغواء ، الأمر الذي طمس معالم الهداية فيهما ، وأما القرآن العظيم فقد حفظه الله من الزيادة والنقصان وصانه الله من التغير والتبديل . " وجاء فيها أيضاً وبالخط الكبير أن : " مقارنة القرآن بالكتب السماوية لا تكون بعد تحريفها .. بل قبل ذلك " ..! ولذلك : " لم يعد بقاء لشريعة غير الشريعة الإسلامية " .

جريدة " المسلمون " هذه ، لو كان انتشارها مقتصرأ على أرض الحجاز فقط ، لما كنا قد اكرثنا بالرد عليها ، ولكنها إذ وسعت دائرة توزيعها لتشمل أقطاراً عديدة من هذا العالم ومن بينها الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أصبح الرد عليها أمراً واجباً ، لأنها ترهاتها لم تعد موجهة فقط إلى قرائها المحليين المحرومين من الإطلاع على الفكر العالمي ، بل تجاوزت الستار الحديدي المفروض على فكر مواطنيها ليمتد استهزاؤها بعقول الناس فيشمل عقول المطلعين والعارفين بالحقائق من كل جوانبها والذين لا يقبلون الحكم على الفكر من جانب واحد .

محاضرة الشيخ عبد الله البسام التي نشرتها الصحيفة ، تحوي من المغالطات ما هب ودب ، والرد عليها يحتاج إلى مئات الصفحات ، ولكننا مع احتفاظنا بحق الرد على كل المغالطات واحدة واحدة ، فإننا نتوقف اليوم ولضيق المجال عند الرد على ما جاء فيها من افتراء على الإنجيل باتهامه بالتحريف . ولعل الرد على هذه التهمة بالذات يقند بقية ما جاء في المحاضرة كلها ، لأن هذا " الجزء الباطل " هو أساس " الكل " ، وبظهور حقيقة " الجزء " ، فإن " الكل " لا بدّ يصبح باطلاً .

من المعروف بأن الإنجيل هو كتاب محرّم ممنوع التداول في السعودية منعاً باتاً ، وتداوله هو من الموبقات التي تستوجب العقاب الشديد ، ولذلك فأبناء السعودية بشكل عام لا يعرفون شيئاً عن هذا الكتاب . طبعاً ، يستثنى منهم بعض فقهاءهم ومن بينهم الشيخ عبد الله البسام هذا ، إذ لا بدّ أنه قد اطلع عليه لكي يتوصل إلى وصفه بالتحريف ، اللهم إلا إذا اطلع على بعض صفحاته ورمى بالأخرى كما يفعل الكثيرون منهم خوفاً من أن يشوش بتعاليمه أفكارهم ويبعدهم عن الدين الحنيف . ولكن الشيخ عبد الله البسام ، حتى لو أنه قرأ الإنجيل بكامله ، فإنه لا يؤاخذ أبداً على اعتقاده بتحريفه وفساده وعدم صلاحية

مقارنته بالقرآن .. لا يؤاخذ على ذلك لأنه اطلع عليه بعد أن كبرَ وتشربَ لسنين طويلة ما يتعلمه كل مسلم منذ نعومة أظفاره عن فساد الإنجيل وتحريفه ، فتجاوز هو بذلك مرحلة الليونة التي يمتاز بها العقل البشري خلال المراحل الأولى من عمره .

وللدخول في صلب الموضوع ، نبدأ قبل كل شيء بتبيان المستندات القرآنية التي اعتمد عليها الشيخ البسام والتي يعتمد عليها عادة غيره من علماء المسلمين في توجيه تهمة التحريف للإنجيل .

يستشهد الشيخ بما يذكره القرآن : " ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه .. " ثم يتابع استشهاده بآية أخرى تقول : " وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق .. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . " ويقول الشيخ معلقاً : (هذه هي تعاليم الكتابيين التوراة والإنجيل حينما كانا رطبين طاهرين " كذا ! " ، لم تعبت بهما أصابع التحريف ولم تمتد إليهما عوامل الهوى والضلال ولم يستخلفهما الإنحراف والتغير في اللفظ والمعنى والهدف المنحرف والقصد السيء " كذا " ، أما بعد أن طرأ عليهما التحريف وامتد إليهما التبديل وعبثت فيهما أيدي الأهواء والأغواء فقد تغيرت معالهما وانطمست علامات الهداية منهما وانمحت إشارات الدلالة فيهما فصارا إسماً على غير مسمى ورسماً على غير هداية ودلالة ، فانقلبنا ممسوخين " كذا " وعن طريق الهداية مسلوخين ، ولنستمع إلى قول أصدق القائلين يصف التوراة بعد تحريفها وتبديلها ، قال الله تعالى : " فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . " وقال تعالى : " أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . " .. وها هو الإنجيل بعد تحريفه وتبديله : قال تعالى : " من الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به . ") تلك كانت بالضبط كلمات الشيخ البسام !

ويظهر واضحاً ، أن الشيخ ، إذ يعتبر الإنجيل ، لفساده ، غير صالح للمقارنة بالقرآن ، فإنه يلجأ إلى مقارنة القرآن بما يقوله القرآن نفسه ، ليثبت تحريف الإنجيل ، وهذا أمر لا يقبله المنطق السليم ، ولذا فسنحذو نحن حذوه ونستعمل منطق الأعوج ، فلا نقارن الإنجيل بالإنجيل ولا الإنجيل بالقرآن ، بل سوف نرضي سماحته فنجعل من القرآن مصدرنا الوحيد للرد على ما يقوله هو والقرآن معاً .

نبدأ بالرد على الشيخ من باب الواسع فنقول له ، أنه لم يتنقّص الإنجيل بشيء في اتّهامه بالتحريف وعدم الطهارة ، إنما هو قد تنقّص القرآن واتّهمه من حيث يدري أو لا يدري ، بالتناقض والتحريف ، ولا نقول عدم الطهارة ، لأننا أرفع من أن ننزل إلى مستوى عباراته الخبيثة التي وصف بها كتاباً مقدساً يجله قرآنه ويرى في مسيحه رسولاً لا يدانيه في عظمته رسول آخر .. لا بل يكفي أن نرى فيه اسم المسيح حافظاً لنا على احترامه وعدم وصفه بهذه العبارات الخبيثة . وسيكون هذا موضوع بحث لنا في المستقبل القريب .

هذا الكتاب الذي يتهمه الشيخ بالتحريف ، هو باعتراف القرآن ، كلمات الله وهدي ونور وموعظة للمتقين : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونوراً ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدي وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . سورة المائدة : 46-47) . وهو أيضاً كلام الله أطلق عليه القرآن إسم (الذَّكْر) ، وهو إسم أطلقه على التوراة أيضاً إذ قال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . سورة النحل 43) وأيضاً : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر - أي كتاب موسى - أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . سورة الأنبياء 105) كما أطلق القرآن هذا الإسم على نفسه إذ ذكر أن الله قال مخاطباً النبي محمد : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون . سورة النحل 44)

الإنجيل أيضاً كما التوراة ، هو في القرآن : (الكتاب) ، جاء ذكره مرات عديدة :

فالقرآن أو الفرقان أو البينات أو الذكر أو الكتاب أو التوراة أو الإنجيل ، كلهم في نظر القرآن تنزيل من الله تعالى ، أي كلماته أعطاها لهؤلاء المرسلين .. هذه الكتب كلها يقول عنها القرآن أنها محصنة من التبديل أو التحريف إذ يصرح بذلك بشكل لا غموض فيه : (إنا نحن نزلنا الذِّكْرَ وإنا له لحافظون . سورة الحجر 9) وأيضاً : (لا تبديل لكلمات الله . سورة يونس 64) وأيضاً : (لا مبدل لكلمات الله . سورة الأنعام 34) وأيضاً : (لا مبدل لكلماته . سورة الكهف 27 وسورة الأنعام 115) وأيضاً : (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . سورة الفتح 23) وأيضاً : (فهل ينظرون إلا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ! سورة فاطر 43)

فهل تسأَل الشيخ عما دفع الله إلى نقض عهده ليسمح للناس بتبديل كلماته والتلاعب بها ؟.. أو بالأحرى ، كيف يريد لنا الشيخ أن نعتقد بإله له القدرة على أن يحفظ قرآن أو كتاب أو ذكر المسلمين ولكنه يعجز عن حفظ كتبه الأخرى التي أعطاها لمرسله الأولين رغم وعده بأنه لن يسمح لأحد بتبديلها ؟.. وإذا ما فقد الشيخ ثقته بقدرة الله تعالى على حفظ كلماته ، فكيف لنا أن نثق نحن أيضاً بأن عثمان بن عفان حين أمر بحرق كل نسخ القرآن مبقياً على واحدة منها فقط ، لم يخطئ بإحراق النسخة الصحيحة منه ؟.. هل يمكن أن يخطئ الله ولا يخطئ عثمان ، وهل يكون عثمان أعظم حفظاً لكلمات الله من الله نفسه ؟... نحن نفهم من القرآن أن الله قد أمر النبي محمد حين خامره الشك في تصديق الوحي المنزل عليه أن يسأل أهل الكتاب : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . سورة يونس 94) . فإذا كان هؤلاء يقرأون كتباً محرفة مزورة فكيف ينصح الله النبي محمد أن يستشيرهم ويستشير كتبهم ؟.. أما إذا كانت كتبهم الموجودة بين أيديهم قد جرى تحريفها بعد ذلك ، فليسمح لنا فضيلة الشيخ أن نقول : أصلح الله اخواننا المسلمين .. لماذا حفظوا كتبهم ولم يعملوا على حفظ كتابنا رغم أن كتبهم يستند في مصداقيته على كتابنا ؟.. لا بل إلى من يلجأ المسلمون بعد ذلك للإستشارة حين يكونون في شك مما أنزل الله على رسولهم ؟..

همسة أهمسها في أذن الشيخ عبد الله البسام : طالما أن الله قد انحاز إلى صفوف المسلمين فحفظ كتابهم ومسح كتابنا ، فما الخوف إذن من السماح لكتابنا المسح من دخول السعودية ؟.. أليس الله بقادر على أن يمسخه بشكل أعظم فلا يدعه يؤثر على عقول أبنائكم ؟..

إن الشيخ البسام ، رغم إيمانه الشديد بعدم صلاحية الإنجيل للمقارنة مع القرآن ، فهو مع ذلك يستشهد بهذا الكتاب المحرّف ليظهر فضل الإسلام على المسيحية ، ولكنه ومما يدعو للضحك ، لم يجد في هذا الإنجيل المحرّف ما يعيبه عليه سوى تسامحه الشديد في ذكره لقوله المسيح : " من ضربك على خدك الأيمن فحول له الآخر ! " ، ويرى أن الإسلام هو أفضل وأعدل وأكثر إنصافاً وحكمة من المسيحية ويستشهد بالآية القرآنية : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . سورة البقرة 178) ولكنه يتحاشى الاستفاضة في شرح هذه الآية التي تعني أن الرجل الحر لا يعاقب بالقتل إذا قتل عبداً بينما يعاقب العبد بالقتل إذا قتل رجلاً حراً أو عبداً آخر كما لا يعاقب الرجل بالقتل إذا قتل أنثى . فهل هذا هو العدل الذي يريد لنا الشيخ أن تؤمن به ؟..

يلوم الشيخ الإنجيل المحرّف أيضاً لعدم سماحه بالطلاق إلا لعدة الزنا فهل يعني بذلك أنه يحاول إقناعنا بأن الشريعة التي تسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق بمجرد ذكر كلمة الطلاق ثلاثاً ، هي ما يجعل الإسلام أفضل من المسيحية ؟.. إذا كان هذا ما يعيب به على كتابنا المحرّف فنعم التحريف !

وأخيراً ، تلاعب الشيخ بالكلمات حين قال أن النصاري لا يتحاشون جماع المرأة الحائض ، ولا نعرف من أين أتى حضرة البحاثة بهذا النبا . نقول أن الشيخ تلاعب بالكلمات لأنه أقحم كلمة النصاري في حديثه عن الإنجيل ليوحي لقرائه أن الإنجيل يسمح بذلك ونحن لم نقرأ في الإنجيل حديثاً عن لسان المسيح يتعلق بهذه الأمور التي أفرد لها القرآن من آياته العدد الوفير ، وفي صحيح البخاري جزء كامل عن الحيض والحائضات ومن الأحاديث التي وردت فيه واحد عن عائشة قالت فيه : " كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد كلانا جنباً وكان يأمرني فأترق قبياشرني وأنا حائض وكان يخرج رأسه إلي وهو معتكف فأغسله وأنا حائض . " ونقول عائشة أيضاً : " كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباشرها أمرها أن تتزر في فور حيضتها ثم يباشرها ، قالت وأرىكم يملك إربه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يملك إربه ؟ . " (1*) وهذا الحديث وما فيه من تحدي عائشة للمسلمين بقولها لهم أن ليس بينهم من كان يملك إربه كالنبي ، إشارة واضحة إلى أن العادة كانت منتشرة بين المسلمين .

وهنا لا بد أن يلاحظ القارئ أن في قول عائشة ما يثبت عكس الغاية التي نشدتها من تحديها للمسلمين آنذاك ، إذ يبدو واضحاً أن محمداً لم يكن يملك إربه أبداً ، لأنه رغم ذلك العدد الكبير من الزوجات والإماء اللواتي كان يملكهن ، فهو لم يكن لديه من الصبر ما يجعله ينتظر أياماً قليلة ليباشر عائشة ، فكان حسب قولها ، يطلب منها أن تضع إزاراً فوق فرجها ليباشرها في صدرها وأماكن أخرى من جسدها .

كلمة أخيرة للشيخ البسام ولهيئة كبار العلماء التي هو عضو فيها : لقد أهداني والدي منذ نعومة أظفاري قرآناً لقرأه دون أن يدعوه مسخاً بل قال لي : " اقرأ وتعلم ، إذ لا يجوز أن تؤمن بدينك وأنت مغلق العينين . فافتحوا أنتم النوافذ أيضاً ولا تخشوا نور الشمس .